

تصوير الواقع عند الأديب السوري زكريا تامر

د. أحمد بستنجي *

الملخص

هدفت هذه الدراسة إلى كشف طرق وأشكال تصوير الواقع في أعمال زكريا تامر منطلقاً من أعماله القصصية منطلقاً لها. قدّم الباحث معلومات موجزة عن حياة الكاتب ومكانته الأدبية، وأشار لأقوال الناقدین له. وقسم الموضوع إلى ثلاثة أقسام وذلك على النحو التالي:

- توظيفه الشخصيات التاريخية .
- توظيفه الشخصيات الدينية.
- و توظيفه الشخصيات الشعبية.

وشرح كل قسم بنماذج من قصص الكاتب. وخلص إلى أن زكريا تامر أبّن لواقع معين ومنظر لهذا الواقع، قومه وتعامل معه من خلال تعامله مع الناس واتقانه للغة الحياة وإحاطته بأسرارها، فاغتنت جماليه النص لديه، واتسعت معالمه الفنية فكان زكريا الأديب انعكاس لواقعه وبيئته.

* أستاذ مساعد في شعبة اللغة العربية وبلاغتها في كلية الآلهيات بجامعة صكريا/تر كيا .

bostanci@sakarya.edu.tr

التعريف بالأديب زكريا تامر

زكريا تامر¹ كاتب عربي كبير من كتاب القصة القصيرة، يسمى بشاعر القصة العربية وساحر دمشق. وهو ظاهرة فنية طليعية ممتعة، كانت وما تزال مثيرة مدهشة. يعتبر زكريا تامر أحد أهم كتاب القصة القصيرة في العالم العربي، من خلال تزويد المكتبة العربية بنتائج وإبداعات قصصية أهلتها للفوز بجائزة سلطان العويس الثقافية ، عن فئة القصة والرواية المسرحية لعام 2002².

وهو يمثل ظاهرة، ربما تكون فريدة بين كتاب القصة القصيرة في الوطن العربي، فضلا عن كونه على المستوى التاريخي، يمثل جيل الرواد الأوائل في الوطن العربي، فان استمراره وتدفعه في كتابة هذا الجنس الأدبي والإخلاص له والتنوعيات التي أدخلها على مجمل تقنياته وعدم التكرار في الموضوعات والزوايا التي يدخل من خلالها إلى جسد النص هي التي تفسر بعضا من أسباب هذه الفرادة، كذلك فإن الاكتناز اللغوي والتكثيف الشديد واللغة الموحية السلسة التي تبلغ حدود الشعرية أحيانا هي الأخرى تساهم في تعليل فرادة هذا الكاتب³.

من جهة أخرى، ليس هناك أي كاتب سلم من النقد، ومن الطبيعي أن هناك انتقادات حول قصص زكريا تامر، خصوصا حول مجموعاته الأولى. عندما أصدر الكاتب أعماله الأولى وصفها بعض النقاد العرب بأنها أشياء لا يمكن اعتبارها قصة. وكان في مقدمتهم الناقدة العراقية المشهورة نازك الملائكة. ويعتبر بعض النقاد مثل بو علي الكاتب بأنه كاتب بين الكتاب السوريين يثبت المشكلة بإتقان ولكن لا يشير إلى الحل. فقد منع

¹ ولد زكريا تامر بدمشق عام 1931، واضطر إلى ترك الدراسة عام 1944، وبدا كتابة القصة عام 1958، رتب أيضا المقالة القصيرة: الانتقادية وفصص الأطفال، ويقوم في بريطانيا منذ عام 1981. نولى مناصب عدة منها على سبيل المثال رئيس تحرير مجلة الموق الأدبي السورية، ومدير تحرير مجلة الدستور بلندن، ومدير تحرير مجلة الناقد، إضافة إلى عمله كمحرر لقاقي لدى شركة رياض الريس للكتب والنشر بلندن. صدرت أولى مجموعاته عام 1960 وكان بعنوان «سهيل الجواد الأبيض». وتعتبر مجموعة النمر في اليوم العاشر من العلامات الكبرى في مسيرته القصصية، ترجمت بعض أعماله إلى اللغة الفرنسية والروسية والانجليزية والألمانية والاطالية والبلغارية، والإسبانية، والعربية، والتركية . أهم مجموعاته: سهيل الجواد الأبيض، ربيع في الرماد، الرعد، دمشق الحرائق، النمر في اليوم العاشر؛ داء نوح، تكس ركب... انظر: [http://WWW.albayan.co.ae/albayan/culture/2002/issue 116/hywar/1.htm](http://WWW.albayan.co.ae/albayan/culture/2002/issue%20116/hywar/1.htm) ؛ أنظر أيضا عبد الفادر عباس، معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين، دمشق 1985، ص 77 في امقرن للعشرن، دمشق 1985، ص. 77

² <http://www.bab.com/articles>

³ مجدي أبر زيد، <http://www.syrianstory.com/news7.htm>، منقول: خاص القصة السورية/ حرر في 2004/12/1

بعض كتب زكريا تامر في بعض الدول العربية بسبب آرائه السياسية. ولكن بمرور السنوات حظيت آثاره بالقبول من قبل الكثيرين. وأن ترجمة كثير من أعماله إلى لغات أوروبية كثيرة ونيله جائزة سلطان العويس الثقافية عام 2002 دليل كبير على هذا. ولهذا نجد أعمال هذا الكاتب السوري جديدة بالبحث .

الواقع في أعمال زكريا تامر

إن زكريا تامر في كثير من أعماله يرسم لنا الواقع من منظاره الشخصي، وهو يستعمل لذلك وسائل مختلفة. في كثير من الأحوال يرسم الواقع ويعبر عن رأيه فيه مستخدماً شخصيات قصصه؛ يوظف الشخصيات الدينية، والشخصيات التاريخية، والشخصيات الأدبية، والشخصيات الشعبية.

ويمكن تلخيص القضايا التي تناولها الكاتب من خلال هذا التوظيف في قضيتين أساسيتين: النقد السياسي المباشر، وقد تطرق فيه بشكل لافت إلى الحاكم العربي والأنظمة العربية وما يدور في فلكها من فئات نفعية مضلة. والنقد الاجتماعي الذي تطرق فيه إلى قضايا راهنة يحياها المواطن العربي وتشكل عائقاً أمام تقدمه وتطوره كقضايا الفقر والحرمان والتخلف والطبقية، المقينة، والنظرة السلبية للمرأة، والفهم الخاطئ للدين من بعض فئات المجتمع...¹.

إننا من جراء البحث والتقصي الدقيق نستطيع القول بأن قصص زكريا تامر تشكل تعبيراً حياً عن المجتمع الشرقي عموماً وعن المجتمع العربي (في كثير من الأحوال عن المجتمع السوري) خصوصاً، فترسم الواقع رسماً دقيقاً كما تكشف النقاب عن حقيقته بشخصه وعاداته الشعبية، ويتضح ذلك من خلال النصوص المليئة بالإشارات الصريحة.²

فلنا إن تامر يعبر في آرائه عن الواقع والمجتمع مستخدماً شخصيات قصصه، فلنرى فيما يلي كيف وأي أشخاص يستخدم الكاتب لهذا المقصد:

¹ سامر عبد الرحيم محمد مسعود، الشخصيات التراثية في أعمال زكريا تامر القصصية، رسالة ماجستير غير مطبوعة، نابلس 2001، ص 5

² امتنان عثمان الصمادي، زكريا تامر والقصة القصيرة، عمان 1995، ص. 51.

أ) توظيفه الشخصيات التاريخية

إن زكريا تامر وظف في أعماله كثيراً من الشخصيات التاريخية، مثل خالد بن الوليد، طارق بن زياد، عمر المختار، عباس بن فرناس، تيمورلنك وأمثالهم.

هو لا يختار شخصياته التاريخية بشكل عشوائي، وإنما ينتقي مواقف وأحداثاً وشخصيات تراثية ساير طبيعة الواقع الحاضر، وتعبر عنه. ويوظفها الكاتب توظيفاً فنياً معتمداً على الدلالات الإيحائية والإسقاطات الرمزية. ويكون التوظيف للعنصر التراثي توظيفاً انتقائياً أي ينتقي من الجزئيات التي تمر بها الشخصية التراثية ما يساير طبيعة الشخصية المعاصرة¹

يريد الكاتب إدانة الواقع الحاضر من خلال توظيفه عدداً من الشخصيات التاريخية والأدبية التي تواجه الواقع الحاضر، بقصد إظهار المفارقة بين الماضي المضيء ببطولاته وأمجاده والحاضر المظلم بفساده وتراجعته.²

الأمر الذي يجعلنا نرجح أن الشخصية الموظفة ما هي إلا قناع يتوسل به الكاتب للتعبير عما يجول فيه فكره من هموم وغايات.³

يزيح زكريا تامر غطاء القداسة عن التاريخ، ليعيد صياغته بقصد قلب الحقائق وتطويعها لخدمة تصوير الواقع، فيقدم الشخصيات التاريخية السفاحة في بعض قصصه شخصيات إنسانية مظلومة، أرغمها الواقع على القيام بأفعالها (جرائمها في الماضي)، كل ذلك لإبراز المفارقة بين الحاضر والماضي، فالواقع الحاضر الذي رفض بطولة الشخصيات الإيجابية، يبرئ جرائم الشخصيات التاريخية السلبية، ويسوغ أفعالها. وأحياناً يوظف البطولة الشخصية التاريخية الإيجابية توظيفاً عكسياً في قصصه، لإبراز المفارقة والتناقض بين روعة الماضي وفساد الحاضر.⁴ فهو يستقدم أشخاص التاريخ أو الأسطورة المحصنين في الذاكرة العامة، ويضعهم في مواقف جديدة، كمعاصرين،

¹ مسعود؛ الشخصيات التراثية، ص. 70.

² فيروز عيسى عيس، السرد في قصص زكريا تامر، رسالة الماجستير جامعة تشرين 2004،

³ مسعود، الشخصيات التراثية، ص 70

⁴ فيروز، السرد، ص 130، 133

لينزع عنهم حصانتهم. يقلب الأوضاع المألوفة كأنه ينادي: تغيير الواقع، لم يعد كما كان، وليس كما أردناه في الظن!¹

الكاتب يبين في مقابلة أجريت. معه سبب توظيفه الشخصيات التاريخية على النحو التالي: "لأن استخدامي أحيانا يعتبر وسيلة من وسائل إثراء الواقع. تسليط المزيد من الأضواء على جوانب مظلمة، فكيف يمكن إضاءة الحاضر واستشراف المستقبل دون اللجوء إلى تجارب التاريخ وشخصياته"²

وفي بعض القصص يذكر الكاتب مشاهداته عن واقع المجتمع بعين البطل، مثلاً في قصة "يحكى عن عباس بن فرناس"³ البطل يريد أن يطير مثل العصافير، بعد تفكير وعمل طويل يصنع جناحين ويثبتهما على ذراعيه ويبدأ الطيران. وفي أثناء طيرانه يرى ما يلي:

"واستمر عباس بن فرناس يطير من بلد إلى بلد محملاً إلى أسفل، فرأى شعوب تتقاتل، ورأى دماء تراق كأنها المياه الوسخة، ورأى أطفالاً تهلكتهم الأمراض بلا طبيب أو دواء، ورأى سجونا ومشانق ومحاكم قضاتها من القتلة، ورأى رجالاً أحراراً يرحبون بالقيود التي تنتقدهم من الجوع، ورأى الأخ يقتل أخاه ويسير في جنازته غير نادم، ورأى اللصوص مكرمين والشرفاء منبوذين محتقرين، ورأى الخيانات تعامل بوصفها أحداثاً تاريخية، ورأى الصفقات التجارية تنجز باسم المبادئ، فانتحب دونما خجل، وامتألت عيناه بالدموع الغزيرة بينما كان يطير بسرعة وبكل ما يملكه من قوة، فلم يتنبه إلى جبل شاهق ينتصب أمامه، واصطدم به صدمة عنيفة، فتمزق جسده، ومات"⁴

في الحقيقة الذي يرى كل هذه الحقائق هو الكاتب بالذات، لأنه يتطرق إلى هذه الحالة الفاسدة في المجتمع في كثير من مقالاته، ومن هذا نفهم أن هذه المشاهدات هي رأي الكاتب الذاتي، ولكنه يعكسه من عين عباس بن فرناس ربما ليكون مثيراً أكثر. مثال آخر لتوظيف الكاتب الشخصية التاريخية استخدامه عنتره، وفي قصة "عنتره النفطية" يتحول عنتره إلى

¹ د. ناديا خوست، قصص زكريا تامر الجديدة" مجلة الموقف الادبي، آب 2000، العدد 352

² مجدي أبو زيد <http://www.syrianstory.com/news70.htm>، مقول: حاص القصة السورية/ حرر (01/12/2004

³ أبو القاسم عباس بن فرناس بن فرناس مخترع وفيلسوف وشاعر أندلسي من قرطبة. عاش في عصر الخليفة الأموي الحكم بن هشام وعبد الرحمن بن الحكم ومحمد. الأول بن عبد الرحمن في القرن التاسع للميلاد. كان له اهتمامات في الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء. اشتهر أكثر ما اشتهر محاولته الطيران إذ يعده العرب والمسلمون أول طيار في التاريخ. توفي في حدود عام 888 م. ومن الواضح حسب المصادر أن عباس بن فرناس قام تجربته في الطيران بعد أبحاث وتجارب عدة وقد قام بشرح تلك الأبحاث أمام جمع من الناس ودعاهم ليريهم مغامرته القائمة على الأسس العلمية، ويقول أحمد بن محمد المقرئ التلمسان «واحتال في تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومد له جناحين وطار في الجو مسافة بعيدة ولكنه لم يحسن الاحتيايل في وقوعه فتأذى في مؤخره». أنظر: أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفع الطبيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، بيروت، 1968، ج 3ص 374.

⁴ زكريا تامر، نداء نوح، ط 2، 2001، ص 219-220

رجل عمل فقد كل المبادئ الإنسانية، كل شيء في عينه يباع ويشترى. وفي نهاية القصة يخبره مديره بأنه قد تحققت رغبته في شراء جمهورية... يسأل مدير المكتب: "وكم تريد أن تكون نسبة المشاركين في الانتخابات ونسبة المؤيدين والمعارضين؟"، فيجيب عنتره بثقة : "هذه شؤون ثانوية سأفكر فيها فتما نعد"¹

هكذا يبدي الكاتب آراءه الشخصية عن الانتخابات المقامة في العالم العربي لأننا نعرف من مقالاته أنه يسخر من الاستفتاءات الشائعة المعتادة في العالم العربي التي تتصف بأن نتائجها معروفة من قبل. إذ يقول الكاتب في إحدى مقالاته: "أما المرشح المفضل لدى الناس أجمعين حكماً ومحكومين، فهو ذلك الذي يعاهد الناخبين على العمل من أجل إلغاء الانتخابات والبرلمانات، فيريح المسؤولين عن عناء تأليف المسرحيات وإخراجها، ويريح الناس من عناء التمثيل فيه"²

(ب) توظيفه الشخصيات الدينية

وفي قصصه يستخدم الكاتب بعض الشخصيات الدينية، مثل نوح ويوسف وجبريل عليهم السلام ومنكر ونكير، وذلك ليعبر عن آرائه الشخصية بواسطتهم .
مثلاً : إن اسم الشخصية المحورية في قصة البدوي "يوسف"³ هي شخصية متخيلة تمازج في إطارها العام بين أفكار الكاتب من جهة وبعض معطيات " يوسف الدينية، على الرغم من قلة الوقائع التناسلية المتحققة في النص والمحيلة إليها لتعبر في النهاية عن غايات الكاتب ومقاصده؛ فيوسف في القصة يعيش طفولة صعبة قاسية تنتهي بطرده من البيت، وهو لا يزال صبياً، واضطر إلى العيش في قبو شبي بقبر. وكذلك حال يوسف عليه السلام إذ يفارق أسرته بعد أن ألقاه إخوته في الجب⁴ والفارق وحد بينهما، وإن اختلف السبب فيوسف عليه السلام لم يغادر بسبب الفقر وإنما بسبب حقد إخوته وغيرتهم. كذلك يتعرض يوسف في القصة لإغراءات زوجة أخيه فيختلي بها. ويتشابه هذا مع ما حدث ليوسف عليه السلام، وقد تعرض لإغراءات زوجة العزيز إلا أن الله قد نجاه من فتنتها. وفي نهاية القصة يعود يوسف إلى البيت الطيني، ويجتمع بأسرته ليعيش حياة سعيدة. ويجتمع يوسف عليه السلام بأهله بعد،

¹ تامر، نداء نوح ، ص 115

² زكريا تامر، هجاء القتل لفاتله، بيروت 2003، ص. 443.

³ زكريا تامر، دمشق الحرائق، ط 4، 2001، ص 193

⁴ انظر سورة يوسف ، الآية 10 وما بعدها من الايات

يرسل في طلبهم.

يهدف الكاتب من هذا التوظيف إلى نقد المجتمع العربي الذي يضح بالعيوب الاجتماعية. فهو يبين الدور السلبي الذي تقوم به السلطة الأبوية من مصادرة حرية الأبناء الفكرية والمادية إذ يتحولون إلى كائنات مسلوبة الشخصية والإرادة. كما أنه يريد أن يبين منهاجاً تربوياً خاطئاً متبعاً في المجتمع العربي. يظهر ذلك في قول يوسف "كان أبي يريد مني أن أعطيه أجرتي كلها، ويحاول مني قراءة الكتب التي أحبها زاعماً أن الكتب تفسد العقل وتضر بالجسم وتضيع الوقت وتبدد المال"¹. ويظهر ذلك في موضع آخر في قول يوسف "أبي لا يحب سوى الأولاد الذين يشتغلون في النهار وينامون في الليل، ولا ينفقون نقودهم، ويقبلون يده باحترام"².

ويوظف الكاتب الملكين في قصة "مغامرتي الأخير". وفيها ينتظر أمجد مدير بنك في أحد المطاعم، ثم يغادر إلى بقالة ليشتري بيضتين بعد أن أحس بالجوع. وفي مطبخ بيته، وما إن كسر البيضتين حتى خرج منهما صوصان سرعان ما تحولوا إلى رجلين أبيضين ذوي أجنحة. أخبره أحدهما أنه منكر والأخر بأنه نكير. وقد أصيب الرجلان بالحيرة وعبرا عن أسفهما، بعد أن أخبرهما أمجد أنه لا يزال حياً، وأن هذا بيت وليس قبراً. إلا أن أمجد طالبهما بدفع ثمن البيضتين. ولم يستطع الحصول منهما إلا على وعد بالتغاضي عن عدد لا بأس به من سيئاته. اندفع أمجد إلى البقال الغشاش، لكنه وجد البقال قد مات فجأة، ويتم نقله في سيارة إسعاف. ويصر أمجد على الركوب في السيارة إلى جانب المتوفى، وفيها يطالبه بثمان البيضتين، فيجيبه البقال بأنه ميت، فاضطر أمجد إلى السكوت.

إن منكرًا ونكيرًا في القصة لا يمثلان الملكين كما أوردتهما المصادر الدينية وإن أفاد الكاتب منها، وإنما هما وسيلة يتوسل بها الكاتب لتوصيل ما يريد قوله.

يعتبر الكاتب منكرًا ونكيرًا معادلاً موضوعياً للنظام العربي، ويطمح الكاتب إلى فضح سياسة هذا النظام المبنية على محاربة المواطن العربي وكل أديب ومفكر أصيل غير موال له، ويسعى إلى فضح عيوبه وسياسته التعسفية؛ فالنظام العربي من أجل المحافظة على وجوده، يحارب المواطن في لقمة عيشه بحيث يحصر المواطن العربي كل تفكيره في السعي المضمّن للحصول عليها دون الالتفات إلى القضايا السياسية المصيرية. يظهر ذلك في القصة من خلال تصوير منكر ونكير، وهما يخرجان البيضتين. وفي سعي الراوي الشرس من أجل الحصول

¹ تامر، دمشق الحرائق، 208

² تامر، دمشق الحرائق، 202

على البيضتين، أو التعويد بدفع ثمنها إشارة لما يعانيه المواطن العربي من صعوبة في الحصول قوته اليوم وقد وافق الكاتب إلى حد بعيد، بأسلوبه الساخر المعتاد في ذلك. يؤكد ذلك ما نجده توافق بين الغاية السابقة التي تسعى القصة إلى توصيلها، وبين ما يصرح به الكاتب في إحدى مقالاته عندما سئل: "الشمس أحسن أم القمر؟ فقال بحق: "هذا سؤال يسأله إلا من لم يعرف مطاردة القوت اليومي ليل نهار!"¹.

ج) توظيفه الشخصيات الشعبية

أحياناً يستخدم الكاتب بعض الشخصيات الشعبية سواء كان معاصراً أم لا. يوظف الكاتب مثلاً شخصية سندباد² من قصص ألف ليلة وليلة ويقع خلفه ليستنطقه بما يريد قوله. ويرمي إلى توصيل حقيقة ماثلة في الواقع العربي والإنساني.

في قصة "آخر المرافئ"³ تحطم العاصفة سفينة سندباد، ويجد نفسه في جزيرة مليئة بحمير تتكلم كالإنسان، وفي أثناء محادثته مع الحمير فجأة يقول أحد الحمير قاصداً الناس: "ولكن هل أنتم السعداء؟" يفكر سندباد: في عالم الإنسان "كل شيء للبيع وذو ثمن محدد، حتى الإنسان يباع بأبخس الأسعار. فالأب يتنكر لأبنائه، والأبناء يعاملون آباءهم كأنهم خصوم الداء...، والذعي يحتل كرسي الأصيل، والأصيل منبوذ مهان تطارده الكلاب..."

هذه في الحقيقة آراء الكاتب الشخصية، يؤكد ذلك ما نجده من توافق بين ما سبق، وبين ما يصرح به الكاتب، إذ يقول: "...هناك في البلاد العربية من يقتل ويغتصب ولا يطارد بل هو الذي يطارد ويتبوأ أرفع المناصب"⁴

وفي نهاية القصة يقرر سندباد أن يبقى ويعيش مع الحمير. إن تحول السندباد من العالم البشري إلى العالم الحيواني يحمل سخريّة مريرة، وهجاء قاسياً للمجتمع البشري الفاسد. فعندما وجد السندباد نفسه مكرماً في مجتمع الحمير، لم يخجل من الانتماء إليه، بل شعر بالسعادة تغمره⁵

¹ مسعود ، الشخصيات التراثية ، ص 50

² سندباد أو السندباد البحري بطل من قصص ألف ليلة وليلة المجهولة الكاتب والمصدر لشاب عري من بعداد مغامر يطوف البحار من بلد لآخر.

³ تامر ، نداء نوح ، ص 149-154

⁴ مسعود الشخصيات التراثية ، ص 240

⁵ فيروز ، السرد ، ص 112

وفي قصة "الليلة الأخيرة" عندما تعرض شهرزاد أن تحكي لشهريار حد يخبرها بتأجيل ذلك إلى يوم آخر؛ لأنه سيتابع مباراة كرة القدم، ويرفض اقتراحها اليوم التالي؛ لأنه سيتابع مسلسل تلفزيونية مأساوية، ويرفض في اليوم الذي يليه، سي شاهد فيلم سوبرمان. وتحصل مشادة كلامية بينهما في نهاية القصة، تنتهي بطلب شهريار من شهرزاد أن تخرس؛ لأنه سيتابع مباراة كرة القدم، وإلا فإنه سيذبحها فخافت شهرزاد وسكتت عن الكلام كأبي عربي وعربية.¹

يريد الكاتب أن يلفت انتباه القارئ العربي إلى عادة سيئة مستشرية في المجتمع عادة الإدمان على مشاهدة التلفاز. ويظهر الكاتب سيئات هذه العادة من خلال توظيف شخصية شهرزاد؛ إذ تعتبر هذه الشخصية رمزا للفكر والثقافة والمعرفة. لقد الكاتب هذه المدلولات، وأسقطها على شهرزاد في القصة. ولما كان شهريار القصة هو المعادل الموضوعي لفئة معينة معاصرة في المجتمع، فإن الكاتب يرب يقول إن الرجال لا يقبلون على القراءة والمعرفة، وإنما ينفقون أوقاتهم على برامج تلفازية تافهة لا قيمة لها؛ الأمر الذي يؤدي في نهاية المطاف إلى هبوط تفكير الفئة من جهة، كما أن الإدمان على مشاهدة التلفاز تؤدي إلى حدوث المشاكل والخلافات الأسرية.²

إن الكاتب يستعمل شخصية جحا كثيراً لأن نواتره تعبر عن واقعنا الحاضر، ولأنها كما يقول محمد فهمي "حكمة الأيام ووعظ الزمن وتجربة الدنيا وسخرية الحياة"³ تمثل قصص جحا نموذجاً للقصص التي استعان فيها الكاتب بالحكمة لتصوير الواقع، إذ يسرد في هذه القصص مأساة الإنسان المعاصر من خلال توظيفه حكايات ونوادير كان جحا بطلها الوحيدة.⁴

الكاتب يحور في بعض النوادير ويضيف إليها أشياء جديدة لم تكن في أصلها وأحياناً يكتب قصصاً عن جحا لم تكن موجودة من قبل، لأن هدفه استخدام هذه الشخصية للتعبير عما يريد أن يقوله.

يدخل جحا في حلقة "خير الفرسان" في سباق الخيل، وهو يركب حماراً بطيء السير، فتعجب الناس من ذلك، إلا أنه في نهاية السباق كان الفائز الأول. "عندئذ تنبه الناس إلى أمر

¹ تامر، نداء نوح، ص 234

² مسعود، الشخصيات التراثية، ص 236-237

³ مسعود الشخصيات التراثية، ص 244

⁴ فيروز السرد، ص 125، 128

منسي، وهو أن ابن عم جحا كان ذا منصب خطير قادر أن يجعل قلوب الشجعان ترتجف هلعاً ليل نهار"¹

يريد الكاتب بهذه القصص أن يكشف جانبا من جوانب الفساد، وهو استغلال المنصب الحكومي لتحقيق مصالح خاصة.

ويعتاد جحا في حلقة "المهرجون" على أن يصعد إلى بناية عالية ليفرح ساخراً شامتاً بالناس حين يظهرون صغاراً " ولكنه عندما صار يتردد الى مجالس الأدباء والمفكرين، لم يعد محتاجاً إلى صعود سطوح البنايات العالية لرؤية الناس صغاراً مضحكين.

يتناول الكاتب فئة الأدباء والمفكرين بالنقد والسخرية، ويذهب إلى أنّ هذه الفئة موضع للسخرى والاستهزاء بها، وذلك أن عملها يقتصر على شكليات عديمة القيمة مقارنة بالدور الحقيقي الذي ينبغي لها القيام به؟²

وهذا يتوافق مع ما يصرح به الكاتب؛ إذ نجده يسخر كثيرا من الأدباء بشتى الوسائل. يقول في إحدى مقالاته: " وكان من الطبيعي أن أطرح أسئلة كثيرة حول الحياة الثقافية، فعلمت أن الأدباء ثلاث فئات، الفئة الأولى تتألف من أدباء طاعنين في السن يؤمنون أن الأدب الجيد الأصيل لا ينتج إلا من كان يحمل لقب دكتور والفئة الثانية تضم أدباء يعتبرون النجاح الأدبي وسيلة للشهرة الاجتماعية ولنشر صورهم بأوضاع جذابة مغرية. أما الفئة الثالثة، فأدباءها يملكون دكاكين يبيعون فيها بأسعار لا تزامم شتى أنواع الأفكار والقيم والمبادئ والشعارات"³

نلاحظ أن الكاتب في مثل هذه القصص قد تناول المجتمع العربي بالنقد، وراح يكشف العيوب المترسخة فيه، فيعرض المشاكل، كما تناول المعايير الفاسدة المسيطرة على الحياة العربية... وجاء ذلك منسجما مع تفكير الكاتب من جهة، كما استطاعت الشخصية الشعبية الموظفة أن تعبر عن هذه القضايا بكل قدرة؛ ذلك أنّ النموذج الجحوي في النوادر قد اتخذ من القضايا الاجتماعية علامة للموضوعات التي يتناولها... الأمر الذي زاد من قيمة هذه النوادر بما أسبغها عليها الكاتب من دلالات جديدة، أدهشت المتلقي وأغنته فكريا بما تناولته من قضايا

¹ تامر، نداء نوح ، ص 368

² مسعود ، الشخصيات التراثية ص ، 253-254

³ تامر ، هجاء القتل ، ص 233

جوهريّة¹.

وفي بعض قصصه يستخدم الكاتب عدة شخصيات من المجتمع الشعبي الحاضر، ويرسمها بدقة متناهية توحى بواقع البيئة المحلية للقاص. فرؤية القاص للواقع هي التي تفسر طريقته في رسم الشخصيات، وكذلك مدى وعيه للعلاقة بين الإنسان والواقع.² يستمد زكريا تامر بعض شخصياته من البيئة الشعبية الشامية ويعكس من خلالها واقع الحياة الشعبية البسيطة المحيطة به.³

وبواسطة هذه الشخصيات يتطرق الكاتب إلى عدة موضوعات متعلقة بالمجتمع العربي الحاضر، على سبيل المثال، يكشف عن ضيق العقلية الشعبية وتخلف رؤيتها للمرأة. في قصة "الخراف" عائشة طالبة جامعية في حارة السعدي لا ترتدي الملاءة، وهذا يجلب غضب أهل الحارة، "حملك عدد من رجال حارة السعدي مذهلين يوم أبصروا عائشة الصبية ابنة عبد الله الحلبي تمشي مرفوعة الرأس دون ملاءة سوداء، لا يغطي رأسها سوى منديل ذي لونين أسود وأحمر.

ولما غابت عائشة عن أعينهم، هزوا رؤوسهم أسفين واستولى عليهم استنكار شديد. وما إن أقبل الليل حتى هرعوا إلى بيت الشيخ محمد، ... ثم تحدث أحدهم عن فعلة عائشة ابنة عبد الله الحلبي، فدهش الشيخ محمد وقال: لا أصدق ما أسمع. عبد الحلبي رجل ورع صالح لا تقوته صلاة. صدق من قال إن الوردة تلد شوكة."

تنتهي القصة بموت أخي عائشة أثناء شجاره مع شباب الحارة في أخته⁴. هذه القصة في تلميح إلى قمع رجال الدين، إن زكريا تامر يتطرق أيضاً إلى هذا الموضوع في قصص أخرى مثلاً، في قصة "التراب لنا وللطيور السماء" يسرد الراوي قصة عالم نجح في اختراع طائرة. وقدمها إلى الملك دون ثمن، بقصد مدينته من الأعداء، إلا أن رجل الدين يحرض الملك على العالم، يقول الراوي: "قبادر رجل ذو لحية طويلة إلى الكلام، فقال بصوت متهدج: كفر وإلحاد إن يقلد الإنسان ما خلق الله، وأن يخالف مشيئته. الطير يطير لأن الله خلقه كي يطير ولو أراد الله أن يبلغ الإنسان السماوات لمنحه جناحين"، وأشار الرجل الملتحي بسبابته

¹ مسعود الشخصيات التراثية ، ص 258

² الصمادي ، قصة ، ص 133

³ الصمادي ، القصة ، ص 145

⁴ تامر ، دمشق الحرائق ص. 111- 115

وهي مرتجفة خائفة نحو العالم، وقال: هذا ليس عالماً. إنه إبليس متتكر، يريد اغواءنا وابعادنا عن ديننا"¹

إن زكريا تامر في نظره نحو المجتمع متشائم في كثير من الأحوال ، يمكن أن نشرح سبب ذلك في مجموعاته الأولى بأنه أثر من آثار حرب ال67 السلبية، لأنّ هذه الحرب كما قال د. أحمد جاسم الحسين² تركت جواً من كوابيس سيطر على عشرات القصص حتى إن تناولت موضوعاً آخر غير موضوع الحرب، لأن آثارها كانت على الفرد لافتة للأنظار، وأضفت على كثير من القصص لغة حزينة تسودها روح التشاؤم والانكسار، وإعادة مسائلة لكثير من الثوابت تخص الشخصية العربية."

و يُنتقد زكريا تامر أحياناً بأنه قاس جداً عندما يرسم الواقع، ولكنه يرفض ذلك إذ يقول: "العنف في قصصي ليس بضاعة مستوردة، أو نزوة أو عقدة نفسية، أو نوعاً من الإثارة والتشويق، إنه فقط تعبير عن حياتنا اليومية، نحن نعيش في عالم مفترس سفاح لا يمنحنا سوى السجون والخيبة ويجلنا بالهزائم"³. ويجب أيضاً عن سؤال،

ماسر القسوة أو لنقل الإفراط في القسوة - إن سمحت لنا - وذلك عبر رسم شخصيات تصل لحد العجائبية المهينة أحياناً؟ "ب- سؤالك هذا يصلح لأن يسأله سائح لا يعرف الوطن العربي، لأنني أزعم بأن أكثر قصصي قسوة هي أقل قسوة من الحياة العربية المعاصرة، وأنا لا أستطيع وصف السماء بجمالها الأزرق متناسياً ما يجري تحت تلك السماء من ماس ومجازر ومهازل.. صدقني الأسطورة أصبحت أكثر تصديقاً من واقعنا المرير"⁴

عندما يريد زكريا تامر كشف النقاب عن الواقع بغية عرضه في قصصه يسلك طريقين:⁵

(1) يجعل من أحداث قصصه مرآة تعكس حركة الواقع فكانت أحداث قصصه صورة عن الأحداث الواقعية مضيئاً إلى واقعته مبالغاً في إظهار الفساد الذي يعم، وانهيار المبادئ والقيم.

¹ تامر ، دمشق الحرائق ص. 53-58

² أحمد جاسم الحسين، القصة القصيرة السورية ونقدها في القرن العشرين، دمشق 2001، ص 210

³ لقاء مع الكاتب، ملحق جريدة الدستور، 1970/2

⁴ مجدى أبوزيد، <http://www>syrianstory . com/news7.htm> منقول: خاص القصة السورية/حرر في 2004/12/1

⁵ فيروز/السرد، 137-138

2) يتجاوز الاحداث المعقولة إلى سرد أحداث غير معقولة وينسبها إلى الواقع، لابرار الظلم الذي يقع على الشخصية القصصية، واطهار العنف الواقع وقسوته في إطار من السخرية والنقد الاذع.

مثلاً: في قصة " الصغير الاول" نقرأ كان عبد النبي الصبان رجلاً صخماً ، اعتقل ليواجه اتهاماً بأنه في كل لحظة يستنشق من الهواء أكثر من حصته المقررة، فلم ينكر، وأقر بأن السبب يرجع إلى أنه يملك رئتین كبيرتين، فأحيل توأً إلى مستشفى ليغادره بعد أسابيع رجلاً ذا قامة قصيرة و صدر ضيق، يستهلك يومياً هواء يقل عن الحصاة المخصصة له رسمياً¹

ومن جانب آخر، الاختلاط بين الواقع والخيال سمة من سمات أدب زكريا تامر، هذا كثيراً في قصصه إلى حد أن القارئ لا يكاد يستطيع التمييز بينهما، هو يستعمل الحيوانات والاشياء الجامدة في قصصه كأشخاص، حية يصف أحوال الانسانية في عامله الخيالي . في بعض قصصه يصور صفحات خيالية تماماً ولا يمكن وجودها في العالم الخارجي.

في أعمال نجد أن أبطاله في صراع دائم مع الواقع وعندما يفشلون في هذا الصراع وتصير قدرتهم على التغيير مستحيلة يهربون من الواقع إلى الخيال والوهم. نرى في أعماله الحوار المتخيل (غير المعقول) الحوار مع شخصيات وهمية، ميته، مع عناصر غير إنسانية، مع الحيوانات، مع الجماد.

مثلاً تقوم قصة " الصفقة" على حوار متخيل يدور بين أم وجنيها²

- قالت له أمه متسائلة بغیظ وسخرية: " إلى متى ستبقى في بطني؟
- قال الجنين: " أنا لا أحب السير في الظلام، ولن أغادر بطنك إلا اذا عرفت أولاً أي نوع من الحياة ينتظرني في العالم الذي سأصبح واحداً من أفرادہ.
- قالت الام: العلم في الصغر كالنقش في الحجر.
- قال الجنين: لا فائدة من العلم لا في الصغر ولا في الكبر.
- قالت الام: واجب العقل إصلاح عيوب نفسه قبل انتقاد عيوب الاخرين
- قال الجنين: عيوبي محاسن يليف بها الثناء ، فضائل الاخرين عيوب شائنه.

¹ زكريا تامر، الحصرم، بيروت 2000، ص 167

² تامر، نداء نوح ، ص 77

- فصحت الام بنزق : اذا كانت لك هذه الآراء ، فما مبرر بقائل في بطني؟
 - قال الجنين: أنا انتظر أن تطلقني أي الفقير وتتزوجي من آخر ذي ثراء وجاه ونقود.
- يقدم الراوي هذه الحوار المتخيل ليكشف انهيار المبادي والقيم في المجتمع، فحتى الجنين يريد أن يعقد صفقة مع أمه قبل قدومه إلى الحياة، ليضمن حياة لا جوع فيها ولا فقر.¹

وإذا كان زكريا تامر يقوم بالتجريب في البناء الفني لعامله القصصي فإنه يستعين بالأدوات والتقنيات الفنية التي تكفل نجاح تجربته، ومن هذه التقنيات المفارقة، فإذا كان النقص القصصي يرتكز على ارتباطه بالواقع من جهة، أو انطلاقه إلى فضاء من جهة أخرى، فإن زكريا تامر عبر المفارقة والتجريب سيخلق احداً يتلاصق فيها الواقع والخيال جنباً إلى جنب، فليس ثمة حدث مسؤول عن فعله ووجوده بنفسه، وان يكن تسلسل الاحداث وترابطها المنطقي أمرين ضروريين في البناء القصصي فان زكريا تامر يجعل الأحداث تحمل بذور التفكير إذا ما نظر إليها بعدسة تسلط على الحدث نفسه، لكنها مع ذلك تقدم عالماً منتظماً، والمفارقة تكمن في أنه مفكك تماماً.²

أخيراً يمكن أن نقول إن زكريا تامر في توظيفه شخصيات مختلفة، للتعبير عن الواقع ناجح جداً. لأنه بواسطة هذه الشخصيات يرسم لنا الواقع رسماً مثيراً. مثلاً عندما تطرق الكاتب إلى ظلم في المجتمع لو كان قد استعمل بطلاً غير معروف لما جلب انتباه القراء. ولكن عندما يستخدم اسم شخصية تاريخية مشهورة يلفت انظارنا إلى الموضوع مباشرة. وهو ناجح أيضاً في اختار الشخصيات الشعبية. لأن هذه الشخصيات تعكس لنا المجتمع العربي عكساً دقيقاً جداً.

الخاتمة :

يقول د. غسان سيد: "إن الفنان، مهما كانت خاصيته الفنية، فهو ابن لواقع معين، ومنظر لهذا الواقع، يقوم ويتعامل معه من خلال رؤية معينة تتناسب ودرجة إبداعه وفهمه له. وهذا الفهم يتعلق بجملة العوامل التي كونت فيه الكاتب الفنان وهي تربوية تعليمية واجتماعية

¹ فيروز، السرد ص 103-104

² عبد خليفة ، المفارقة ، ص96

وفكرية... كلما تعامل الكاتب مع الناس تفهم واقعه، وأتقن لغة الحياة، وأحاط بأسرارها، واغتنت جمالية النص لديه، واتسعت معالمه الفنية. هذا يعني أن الأديب انعكاس للواقع.¹ يكتب زكريا تامر كما يفعل كثير من الأدباء عن واقع مجتمعه، من أول يوم بدأ الكتابة إلى يومنا هذا هو يعكس الحقائق الساخرة والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية. والعلاقات الفردية والاجتماعية بلسان ساخر غير رحيم وبشجاعة. من هذا الجانب نظن أن زكريا تامر كان خير من عبر عن واقع ارتبط به بشدة، فجاء إيداعه تتويجاً لهذا الالتصاق بالواقع، وبمصير الإنسان بصورة عامة.

وقد توصلنا في هذا البحث إلى مجموعة من النتائج، وخرجنا بتوصية واحدة نلخصها في الآتي:

1- النتائج:

(1) إن زكريا تامر يكتب أو يعرض في قصصه شخصيته وتجاربه التي حصل عليها أثناء جداله مع الحياة وينتقد العادات السيئة في مجتمعه والمشاكل الاجتماعية السياسية بذكاء مذهل وسخرية تامة.

(2) نرى أن للقصة العربية لغة جديدة مفارقة للغة الأمس باعتمادها على المجاز والخيال الفائق لمعالجة شؤون الواقع الاجتماعي والسياسي تتسم بما يمكن تسميته بالكوميديا السوداء. وإذا قرأنا قصصه تبين لنا أن زكريا تامر قد استخدم هذه اللغة كثيراً.

(3) إن زكريا تامر لا يشرح الواقع بل يشرحه ويقترّب بجرأة غريبة من الكتلة الغاطسة تحت سطح الحياة المعروفة ليقدم لنا نماذج مهولة وغريبة عن الوعي الساذج لكنها في نهاية الأمر موجودة وبقوة لكنها تحتاج إلى التبصر وإعمال الوعي وفيما وراء المنظور والمشهود. يقول تامر: "أنا قمت بأسطره الواقع عبر استدعاء واكتشاف نماذج إنسانية لا تخطر على بال، لكنها موجودة."

(4) إن زكريا تامر بواسطة شخصيات أبطاله يتطرق إلى كثير من المشاكل الاجتماعية والسياسية ويتناول موضوعات الظلم والتفرقة والضغوط وغيرها في المجتمع.

¹ غسان السيد، "الاغتراب في أدب زكريا تامر"، مجلة الموقف الأدبي، آب - 2000، العدد 352.

ويستخدم أحيانا شخصيات تاريخية ويستقدمها في أوضاع مختلفة لا ثراء الواقع. نرى في كثير من الأحوال أبطاله يتكلمون بآراء الكاتب الشخصية. إذا قارنا القصيرة مع قصصه تبين هذا.

(5) إن أعمال زكريا تامر الأدبية نقد ساخر لواقعنا الحاضر بعين متشائم وبمبالغة في كثير من الأحوال.

2- توصية:

من يريد أن يقرأ أعمال زكريا تامر عليه أن يعرف أسلوبه خصوصاً كيفية استخدام الكاتب شخصيات قصصه وإلا لا يمكن أن يفهم قصصه فهماً صحيحاً.
المراجع العربية:

- (1) تامر، زكريا(2001)، نداء نوح ، ط2.
- (2) تامر، زكريا(2001)، دمشق الحرائق ، ط 4.
- (3) تامر، زكريا(2003)، هجاء القنيل لقاتله، بيروت.
- (4) الحسين، أحمد جاسم(2001)، القصة القصيرة السورية ونقدها في القرن العشرين، دمشق.
- (5) خوست، د. ناديا(آب-2000): قصص زكريا تامر الجديدة" مجلة الموقف الادبي، العدد 352.
- (6) السيد، غسان (آب- 2000) ، الاغتراب في أدب زكريا تامر "مجلة الموقف الادبي، العدد 352.
- (7) الصمادي، امتنان عثمان (1995)، زكريا تامر والقصة القصيرة ، عمان.
- (8) عباس، فيروز عيسى (تشرين - 2004) ، السرد في قصص زكريا تامر، رسالة الماجستير، جامعة.
- (9) مسعود ، سامر عبد الرحيم محمد (2001)، الشخصيات التراثية في أعمال زكريا تامر القصصية ، رسالة ماجستير غير مطبوعة، نابلس.